القواعدُ
التي يُحاسَبُ على أساسِها العبادُ

إعداد
الباحث في القرآن والسنة
علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى
٢٠٠٩ م-١٤٣٠ هـ
((بهانج- دار المعمور))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن يوم الحساب والجزاء يوم عصيب ، يحاسب الله تعالى فيه المخلوقات على أعمالهم التي فعلوها بمحض إرادتهم في دار الدنيا، قال تعالى : {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (٤٧) سورة الأنبياء

ويضع الله تعالى الميزان العادل للحساب في يوم القيامة، ولا يظلم هؤلاء ولا غيرهم شيئًا، وإن كان هذا العمل قدْرَ ذرة من خير أو شر اعتبرت في حساب صاحبها. وكفى بالله محصيًا أعمال عباده، ومجازيًا لهم عليها.[1]

وعَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- « مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » .[2]

---

[1] - التفسير الميسر - (٥ / ٤٦٦)

[2] - صحيح البخارى- المكنز - (٧٥١٢) وصحيح مسلم- المكنز - (٢٣٩٥)

وهناك قواعد هامة يجب معرفتها حول الحساب والجزاء يوم القيامـــة ، وهي خمسة قواعد :

القاعدة الأولى–العدلُ التام الذي لا يشوبه ظلم

القاعدة الثانية–الأصل أن لا يؤخذ أحد بجريرة غيره

القاعدة الثالثة–اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال

القاعدة الرابعة–مضاعفة الحسنات دون السيئات

القاعدة الخامسة–إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين

ومعرفة هذه القواعد تجعل المرء مستعدا ليوم المعاد قبل مجيئه .

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَـــدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّـــهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّـــارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) } [الحشر : ١٨ - ٢٠]

نسال الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والـــدال عليـــه في الدارين .

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ١٢ جمادى الآخرة ١٤٣٠ هـــ الموافق ل ٦/٦/٢٠٠٩ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

تمهيد حول الحساب

قال تعالى : {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } (٤٧) سورة الأنبياء

" يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات [ص ٥٢٥] والسيئات، { فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ } مسلمة أو كافرة { شَيْئًا } بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها.

{ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ } التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر { أَتَيْنَا بِهَا } وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }

وقالوا { يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا }

{ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } يعني بذلك نفسه الكريمة فكفى به حاسبا أي عالما بأعمال العباد حافظا لها مثبتا لها في الكتاب عالما بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها موصلا للعمال جزاءها "[3]

وفي الظلال : " والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان ، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع.

والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل! فلتنظر نفس ما قدمت لغد. وليصغ قلب إلى النذير. وليبادر الغافلون المعرضون المستهزءون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة. فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه ،فلا تظلم نفس شيئا ، ولا يهمل مثقال حبة من خردل.

وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة ، بنواميس الكون الدقيقة ، بسنن الدعوات ، وطبائع الحياة والناس. وتلتقي كلها متناسقة موحدة في يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد وهي محور السورة الأصيل. "[4]

وقال الشعراوي رحمه الله : " نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول، وعدم الإيمان بالوحي، وصَمِّ آذانهم

---

[3] - تفسير السعدي - (١ / ٥٢٤)

[4] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٣٨١)

عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط، فلماذا هــذه النَّقْلــة؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذي قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم، وأن كل شيء محسوب، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى، وكأنه ينصحهم، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتكم.

وكلمة (موازين) جمع: ميزان، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيــث كثافتها، لأن التقدير يقع على عدة أشياء: على الكثافة بالوزن، وعلى المسافات بالقياس.. الخ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت، فمثلاً: المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل، وهو موضوع الآن – تقريباً – في باريس، وكذلك الياردة. وجعلوا للوزن معايير من الحديد: الكيلــو والرطل.. إلخ.

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً مــن الحجــارة تســاوي كيلــو مــثلاً، ويستعملونها في الوزن؛ لأن لها مرجعاً، لكن هذه القطعة تتآكل مــن كثرة الاستعمال، فلا بُدَّ من تغييرها.

وهنا تكلَّم عن الشيء الذي يَوزَن، ولم يذكر المعايير الأخرى، قالوا: لأن الأشياء التي لها كثافة هي الأكثــر، وكــاوا يختــبرون الأولاد يقولون: كيلو الحديد أثقل، أم كيلو القطن؟ فالولد ينظر إلى القطــن فيراه هَشَّاً مُنتفِشاً فيقول: القطن، والقطن أزيد من الحديد في الحجم،

لكن كثافته يمكن أن تستطرق، فنُرقّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض. إذن: العُمْدة في التقدير: الثقل.

وفي موضع آخر قال تعالى:{ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }[الرحمن: ٧] فهل هي موازين متعددة، أم هو ميزان واحد

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره، بل في وقت واحد؛ لذلك لما سُئِل الإمام على - كرَّم الله وجهه: كيف يُحاسب الله الخَلْق جميعاً في وقت واحد؟ قال: كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد. فالمسألة صعبة بالنسبة لك، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه.

والقِسْط: صفة للموازين، وهي مصدر بمعنى عدل، كما تقول في مدح القاضي: هذا قاضٍ عادل. أي: موصوف بالعدل، فإذا أردتَ المبالغة تقول: هذا قاضٍ عَدْل، كأنه هو نفسه عَدْل أي (معجون بالعدل)؛ لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه: الحكم العدل. ولا نقول: العادل.

وهذه المادة (قسط) لها دور في اللغة، فهي من الكلمات المشتركة التي تحمل المعنى وضده، مثل (الزوج) تُطلق على الرجل والمرأة، و (العَيْن) تطلق على العين: العين الباصرة، وعلى عين الماء، وعلى الجاسوس، وعلى الذهب والفضة.

كذلك (القسْط) نقول: القِسْط بالكسر مثل: حمْل بمعنى العدل من قَسَط قِسْطَاً. ومنه قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[المائدة: ٤٢] ونقول: القَسْط بالفتح يعني: الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً، ومنه قوله تعالى:{ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً }[الجن: ١٥] أي: الجائرون الظالمون.

والقِسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية، لكن أقسط يعني كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل في الاستئناف.

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى:{ ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ... }[الأحزاب: ٥] فأقسط هنا: أفعل تفضيل، تدل على أن حكم محمد صلى الله عليه وسلم في مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل.

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد.

إذن: الحق سبحانه عدل لرسوله، لكن عدل له العدل لا الجوْر، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال:{ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ... }[الأحزاب: ٥] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل.

وقوله تعالى:{ ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ.. }[الأحزاب:٥] جاء ليبطل التبني؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد في الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة في شرع الله لا تستقيم في وجود هذه المسألة، وإلاّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنّي ويبلغ مَبْلَغَ الرجال؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت، وهو في الحقيقة غريب عن الأسرة؟

ومسألة الموازين هذه من المسائل التي وجد فيها المستشرقون تعارضاً في ظاهر الآيات، فجعلوا منها مَأخَذاً على كتاب الله، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ... } [الأنبياء: ٤٧] وقوله تعالى:{ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً }[الكهف: ١٠٥] حيث أثبت الميزان في الأولى، ونفاه في الثانية.

وقلنا: إن هؤلاء معذورون؛ لأنهم لا يملكون الملكَة اللغوية التي تمكِّنهم من فَهْم كلام الله. ولو تأملنا اللام في{ نُقِيمُ لَهُمْ... }[الكهف: ١٠٥] لا نحلّ هذا الإشكال، فاللام للملك والانتفاع، كما يقولون في لغة البنوك: له وعليه. والقرآن يقول:{ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ... }[البقرة: ٢٨٦].

فالمعنى:{ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً }[الكهف: ١٠٥] أي: وزناً في صالحهم، إنما نقيم عليهم ونَدينهم. كذلك نجد أن كلمة الوزن

تُستعمل في اللغة إمَّا لوزن الماديّ، أو لوزن المعنى، كما نقول: فــلان لا وَزْنَ له في الرجال.

وعلى هذا يكون المعنى: أهم لا وَزْنَ لذواهم ومادهم، إنمـا الـوزن لأعمالهم، فلا نقول: كان من الأعيان، كان أصله كذا وكذا، وهذه المسألة واضحة في قصة ابن نوح عليه السلام:{ قَالَ يانُوحُ إِنَّهُ لَـيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ... }[هود: ٤٦].

فالنبوة هنا بُنوّة عمل وإيمان، لا بُنوة ذات.

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله، ومترلة ستكون لهم في الآخرة، كما كانت لهم في الدنيا، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً.{ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَـراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـاذِهِ أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىا رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف: ٣٤-٣٦].

لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ في الآخـرة، فـالوزن في القيامـة للأعمال، لا للأعيان.إذن: المعنى لا نقيم لذواهم، إنما نزن أعمـالهم؛ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، وَأَبُو سَـلَمَةَ أَنَّ أَبَـا هُرَيْرَةَ ، قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ : {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء] ، قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ

لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا." [٥]

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمة لها في هذا الموقف.

وقوله تعالى: { فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً... } [الأنبياء: ٤٧] مع أن القاعدة:{ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ.. }[البقرة: ١٩٤] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه: ساحر، وكاذب ومجنون، ومع ذلك فلن نردّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم.

وقوله تعالى: { وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا... } [الأنبياء: ٤٧] والخردل: مثال للصِّغَر، للدلالة على استقصاء كل شيء، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمي للكيلو، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوياً في الوزن، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان.

ومعنى: { أَتَيْنَا بِهَا... } [الأنبياء: ٤٧] أي: لهم أو عليهم، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم، ويبحث لهم عن أقلِّ القليل من

---

[٥] - صحيح ابن حبان - (١٤ / ٤٨٦) (٦٥٤٩) وصحيح البخارى- المكنز - (٢٧٥٣)

الخير، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصي كل شيء في الحساب، وحَبّة الخردل تدل على صِغَرها على الجحم، وكلمة مثقال تدل على الوزن، فجمع فيها الحجم والوزن.

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة: { وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء: ٤٧] فلا أحد يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضبَطْ لمعايير الحساب.

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزِنَ الوزن المضبوط؛ لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضة في استعماله للزيادة أو النقصان.

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضيئلاً، وهذا في صالح الموزون له، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها. إذن: أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها.

حتى في الموازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية، وهذا معنى{ وَكَفَى بِاللَّهِ

حَسِيباً }[الأحزاب: ٣٩] { وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبيـــاء: ٤٧] لأن معياره تعالى لا يختلف، ولا ينسى شيئاً، ولا يغفل عن شيء."[٦]

وقال تعالى : {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّـــا فِيـــهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَـــبِيرَةً إِلَّـــا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّـــكَ أَحَـــدًا} (٤٩) سورة الكهف

وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ فَرْدٍ كِتَابُ أَعْمَالِه ، وَفِيهِ جَمِيعُ مَا عَمِلَهُ فِـــي حَيَاتِه ، مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ ، وَمِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ . وَيَـــرَى الُمجْرِمُـــونَ أَعْمَالَهُمُ القَبِيحَةَ مُحْصَاةً بِتَمَامِهَا ، لَمْ يَنْقُصْ مِنْهَا شَيءٌ ، وَيَعْلَمُـــونَ أَنَّ العَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، فَيُشْفِقُونَ مِمَّا سَيَحُلُّ بِهِمْ ، وَيَقُولُـــونَ فِـــي أَنْفُسِهِمْ : يَا وَيْلَتَنَا ، وَيَا حَسْرَتَنَا ، عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي حَيَاتِنَا الـــدُّنْيا ، مَا لِهَذا الكِتَابِ لاَ يَتْرُكُ صَغِيراً مِنْ أَعْمَالِنَا وَذُنُوبِنَا ، وَلاَ كَـــبِيراً إلاَّ أَحْصَاهُ وَوَعَاهُ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ حَاضِراً لِيُحَاسَـــبُوا عَلَيْه ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً مِنْ خَلْقِه

وَإِنَّمَا يُحَاسِبُ العِبَادَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِالعَدْلِ التَّامِّ .[٧]

---

[٦] - تفسير الشعراوي - (/ ٢٥١٢)

[٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٢١٨٩)

فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة : «وَيَقُولُونَ : يا وَيْلَتَنا. ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً ، إِلَّا أَحْصاها؟» وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبط مكشوفا لا يملك تفلتا ولا هربا ، ولا مغالطة ولا مداورة : «وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً» ولا قوا جزاء عادلا : «وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» ..[8]

قوله تعالى: { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } [الكهف: ٤٩] أي: وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى، فيعطون كل واحد كتابه، فهي ــ إذن ــ صور متعددة، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال: { هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ }[الحاقة: ١٩] يعرضه على ناس، وهو فخور بما فيه؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها.

---

[8] - في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٢٧٤)

وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله فإنه يقول:{ يــالَيْتَني لَــمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىا عَنِّي مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ }[الحاقة: ٢٥-٢٩]

إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة.

{ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } [الكهف: ٤٩] أي: خائفين يرتعدون، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه لِيُفــزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة، وهم مــا يزالــون في وقــت التدارك والتعديل من السلوك، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.

فحالتهم الأولى الإشفاق، وهو عملية هبوط القلب وجلجته، ثم يأتي نزوع القول: { وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنَا } [الكهف: ٤٩] يا: أداة للنداء، كأنهم يقولون: يا حسرتنا يا هلاكنا، هذا أوانُك فاحضري.

ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم ــ عليه السلام ــ لمــا قتــل قابيل هابيل، وكانت أول حادثة قتل، وأول ميــت في ذريــة آدم؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه، فقــال:{ يَاوَيْلَتَــا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَــاذَا الْغُــرَابِ فَــأُوَارِيَ سَــوْءَةَ أَخِــي.. }[المائدة: ٣١]{ يَاوَيْلَتَا }[المائدة: ٣١] يا هلاكي كــأن يتحسَّــر على ما أصبح فيه، وأن الغراب أعقل منه، وأكثر منه خبرة؛ لكي لا

نظلم هذه المخلوقات ونقول: إنها بهائم لا تَفهم، والحقيقـــة: ليتنـــا مثلهم.

قوله تعالى: { مَالِ هَــذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَــغِيرَةً وَلاَ كَــبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا } [الكهف: ٤٩] أي: لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عــدَّها وحسبها { وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً } [الكهف: ٤٩] فكل مـــا فعلوه مُسجَّل مُسطّر في كُتبهم { وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف: ٤٩] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه."[٩]

وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ جَلِيسٌ بَــيْنَ يَدَيْــهِ، فَقَالَ: يَا رَسُــولَ الله، إِنَّ لِــي مَمْلُــوكِينَ يُكَــذِّبُونَنِي وَيَخُــونُنِي وَيَعْصُونَنِي، فَأَضْرِبُهُمْ وَأَسُبُّهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ رَسُــولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بِحَسْبِ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ، فَــإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُــكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُــكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلَ الَّذِي يَبْقَــى قِبَلَــكَ "، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُــولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا لَهُ ؟ أَمَا تَقْرَأُ كِتَــابَ الله تَعَــالَى: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَــيْئًا وَإِنْ كَــانَ

---

[٩] - تفسير الشعراوي - (/ ٢١٧٣)

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبيـــاء: ٤٧] "، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ شَيْئًا خَيْرًا لِي مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ "[١٠]

وعن يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ ؛ قَالَ : سَمِعْتُ الْمَأْمُونَ يَخْطُبُ خُطْبَـــةَ يَـــوْمِ الْعِيدِ ؛ فَأَثْنَى عَلَى اللهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَوْصَاهُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، ثُمَّ قَالَ : عِبَادَ اللهِ ! عَظُـــمَ قَـــدْرُ الدَّارَيْنِ ، وَارْتَفَعَ جَزَاءُ الْعَامِلِينَ ، وَطَالَتْ مُدَّةُ الْفَرِيقَيْنِ ؛ فَوَاللهِ ! إِنَّهُ لَلْجَدُّ لا اللَّعِبُ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ لا الْكَذِبُ ، وَمَا هُوَ إِلا الْمَوْتُ وَالْبَعْثُ وَالْمِيزَانُ وَالْحِسَابُ وَالْفَصْلُ وَالصِّرَاطُ وَالْعِقَابُ وَالثَّوَابُ ؛ فَمَنْ نَجَا يَوْمَئِذٍ ؛ فَقَدْ فَازَ ، وَمَنْ هَوَى يَوْمَئِذٍ ؛ فَقَدْ خَابَ ؛ فَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِـــي الْجَنَّةِ ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ فِي النَّارِ . قَالَ : وَخَطَبَ يَوْمَ الْفِطْرِ ؛ فَقَالَ بَعْـــدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْوَصِيَّةِ ؛ فَقَالَ : اطْلُبُوا إِلَى اللهِ حَوَائِجَكُمْ ، وَاسْتَغْفِرُوهُ لِتَفْرِيطِكُمْ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : لا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ ، وَلا قَلِيلَ مَعَ إِصْرَارٍ ، بَادِرُوا عِبَادَ اللهِ بِالأَمْرِ الَّـــذِي اعْتَـــدَلَ فِيـــهِ يَقِينُكُمْ ، وَلا يَحْتَضِرُ الشَّكُّ فِيهِ أَحَدًا مِنْكُمْ ، وَهُوَ الْمَوْتُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْكُمْ ؛ فَإِنَّهُ لا يُقَالُ بَعْدَهُ عَثْرَةٌ ، ولا تحظر قَبْلَهُ تَوْبَةٌ ، وَاعْلَمُوا أَنَّـــهُ

[١٠] - شعب الإيمان - (١١ / ٨٧) (٨٢٢٣) وصحيح الجامع (٨٠٣٩) ومسند أحمد (عالم الكتب) - (٨ / ٥٥٧)(٢٦٤٠١) ٢٦٩٣٣- صحيح

لا شَيْءَ قَبْلَهُ إلا دُونَهُ ، وَلا شَيْءَ بَعْدَهُ إلا فَوْقَهُ ، وَلا يُعِينُ عَلَى جَزَعِهِ وَعَلَزِهِ وَكَرْبِهِ وَلا يُعِينُ عَلَى الْقَبْرِ وَوَحْشَتِهِ وَظُلْمَتِهِ وَهَوْلِ مَطْلَعِهِ وَمَسَائِلِ مَلائِكَتِهِ ؛ إلا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ ؛ فَمَنْ زَلَّتْ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدَمُهُ ؛ فَقَدْ ظَهَرَتْ نَدَامَتُهُ وَفَاتَتْهُ اسْتِقَالَتُهُ ، وَعَايَنَ الرجعة إلا ما يُجَابُ إِلَيْهِ ، وَبَذَلَ مِنَ الْفِدْيَةِ مَا لا يُقْبَلُ مِنْهُ ؛ فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ ! فَكُونُوا قَوْمًا سَأَلُوا الرَّجْعَةَ ، فَأُعْطُوهَا إِذْ مُنِعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ، لَيْسَ يَتَمَنَّى الْمُتَقَدِّمُونَ إلا هَذَا الأَجَلَ الْمَبْسُوطَ لَكُمْ ؛ فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللهُ ، وَاتَّقُوا الْيَوْمَ الَّذِي يَجْمَعُكُمْ فِيهِ لِوَضْعِ مَوَازِينِكُمْ وَلِنَشْرِ صُحُفِكُمُ الْحَافِظَةِ لأَعْمَالِكُمْ مَا قَدْ نَسِيتُمُوهُ وَأُحْصِيَ عَلَيْكُمْ ، وَلْيَنْظُرْ عَبْدٌ مَا يَضَعُ فِي مِيزَانِهِ مَا يَثْقُلُ بِهِ ، وَمَا يَمْلأُ بِهِ صَحِيفَتَهُ الْحَافِظَةَ عَلَيْهِ وَلَهُ ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَا قَالَ الْمُفَرِّطُونَ عِنْدَهَا إِذْ طَالَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْهَا ؟ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } [الكهف : ٤٩] ، وَقَالَ : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيوم القيامة } [الأنبياء : ٤٧] الآية ، وَلَسْتُ أَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّنْيَا بِأَعْظَمِ مَا نَهَتْكُمُ الدُّنْيَا عَنْ نَفْسِهَا ، { وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغرور } [لقمان : ٣٣ ، فاطر : ٥] ، وَقَالَ : { إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لعب ولهو } الآية [الحديد : ٢٠] ؛ فَانْتَفِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ بِهَا وَبِإِخْبَارِ اللهِ تَعَالَى عَنْهَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ قَوْمًا مِنْ عِبَادِ اللهِ

عَزَّ وَجَلَّ أَدْرَكَتْهُمْ عَظَمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فحذورا مَصَارِعَهَا ، وَجَانَبُوا خَدَائِعَهَا ، وَآثَرُوا طَاعَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا ؛ فَأَدْرَكُوا الْجَنَّةَ بمَا تركوا منها ."[11]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَالِحٍ الْعِجْلِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ ؛ قَالَ : خَطَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمًا ؛ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : عِبَادَ اللهِ ! لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَبِالْفَنَاءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَوْصُوفَةٌ ، وَكُلُّ مَا فِيهَا إِلَى زَوَالٍ ، وَهِيَ بَيْنَ أَهْلِهَا دُوَلٌ وَسِجَالٌ ، لَنْ يَسْلَمَ مِنْ شَرِّهَا نُزَّالُهَا ، بَيْنَمَا أَهْلُهَا فِي رَخَاءٍ وَسُرُورٍ ؛ إِذْ هُمْ مِنْهَا فِي بَلاءٍ وَغُرُورٍ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالرَّخَاءُ فِيهَا لا يَدُومُ ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وَتَقْصِمُهُمْ بِحِمَامِهَا . عِبَادَ اللهِ ! وَإِنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَنْ سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَشَدَّ مِنْكُمْ بَطْشًا ، وَأَعْمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ آثَارًا ؛ فَأَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً خَامِدَةً ، مِنْ بَعْدِ طُولِ تَقَلُّبِهَا ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً ، وَاسْتُبْدِلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ ، وَالسُّرُرِ وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ ، الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسْنَدَةَ فِي الْقُبُورِ ، الْمِلاطِيَّةِ الْمُلْحَدَةِ الَّتِي قَدْ بَيَّنَ الْخَرَابُ فِنَاؤُهَا ،

[11] – المجالسة وجواهر العلم – (٧ / ١٠٤) (٢٩٩٣)

وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بناؤها ، فمحلها مُقْتَرِبٌ ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ بَيْنَ أَهْلِ عُمَارَةٍ مُوحِشِينَ وَأَهْلِ مَحلَّة مُتَشَاغِلينَ ، لا يَسْتَأْنِسُونَ بِــالْعُمْرَانِ ، وَلا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِــوَارِ ، وَدُنُوِّ الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَوَاصُلٌ ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِه الْبِلَى ، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى ؛ فَأَصْبَحُوا بَعْدَ الْحَيَاة أَمْوَاتًــا ، وَبَعْــدَ غَضَارَةِ الْعَيْشِ رُفَاتًا ، فُجِعَ بِهِمُ الأَحْبَابُ ، وَسَكَنُوا التُّرَابَ ، وَظَعَنُوا فَلَيْسَ لَهُمْ إِيَابٌ ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! ! { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَــا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يوم يبعثون } [المؤمنون : ١٠٠] ، وَكَــأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ -[٢٨٣]- الْوحْدَة وَالْبِلَى فِــي دَارِ الْمَوْتَى ، وَارْتَهَنَتْمْ فِي ذَلِكَ الْمَضْجَعِ ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْــتَوْدَعِ ؛ فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ قَدْ تَنَاهَتِ الأُمُورُ ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ وَحُصِّلَ مَا فِــي الصُّدُورِ ، أَوَقَفْتُمْ لِلتَّحْصِيلِ بَيْنَ يَدَيْ مَلِك جَلِيلٍ ، فَطَارَتِ الْقُلُــوبُ لإِشْفَاقِهَا مِنْ سَالِفِ الذُّنُوبِ ، وَهُتِكَتْ عَنْكُمُ الْحُجُبُ وَالأَسْــتَارُ ، وَظَهَرَتْ مِنْكُمُ الْعُيُوبُ وَالأَسْرَارَ ، هُنَالِكَ : {تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَــا كَسَبَتْ} [غافر : ١٧] ، (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَؤُا بِمَا عمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) [النجم : ٣١] (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَــرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيه وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنا مَالِ هَــذَا الْكِتَــابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَــا

يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)) [الكهف : ٤٩] . جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّـــاكُمْ عَامِلِينَ بِكِتَابِهِ ، مُتَّبِعِينَ لأَوْلِيَائِهِ ، حَتَّى يُحِلَّنَا وَإِيَّاكُمْ دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فضلة ؛ إِنَّهُ حُمَيْدٌ مَجِيدٌ"[١٢]



[١٢] – المجالسة وجواهر العلم – (٥ / ٢٨٢) (٢١٣٠) والزُّهْدُ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا (٢٠٣) فيه انقطاع

القاعدة الأولى

العدلُ التام الذي لا يشوبه ظلم

قال تعالى : {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (٢٨١) سورة البقرة

وَاحْذَرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ ذَلِكَ اليَوْمَ العَظِيمَ ، يَوْمَ القِيَامَة الذي تَتَفَرَّغُونَ فِيهِ مِنْ مَشَاغِلِكُمُ الجَسَدِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة التِي كَانَتْ تَصْرِفُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ فِي هَذه الحَيَاة الدُّنيا ، وَيُجَازِي اللهُ كُلاً بِعَمَلِه ، إنْ خَيْراً فَخَيْراً ، وَإنْ شَرّاً فَشَرّاً ، وَلا تُنْقَصُ نَفْسٌ مِنْ ثَوَابِها ، وَلاَ يُزَادُ فِي عِقَابِهَا .

وقال تعالى : {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (١٦١) سورة آل عمران.

يُنَزِّهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيةِ رَسُولَهُ الكَرِيمَ عَنْ أخْذِ شَيءٍ مِنَ المَغْنَمِ خِلْسَةً (عَنِ الغُلُولِ) ، وَعَنِ الخِيَانَة فِي أَدَاءِ الأَمَانَة ، فَقَالَ تَعَالَى : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ لأنَّ اللهَ عَصَمَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى مَنْ يَغُلُّ بِأَنَّهُ سَيَأتِي يَوْمَ القِيَامَة وَهُوَ يَحْمِلُ مَا غَلَّ لِيُحَاسَبَ عَلَيه ، وَاللهُ لاَ يَظْلِمُ أَحَداً مِنْ خَلْقِه .[١٣]

---

[١٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٤٥٤)

فيوفيهم الحقُّ عز وجل يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة وإن كان مثقال حبة من خردل، قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} (٤٠) سورة النساء

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُوَفِّيهِمْ أُجُورَ أَعْمَالِهِمْ كَامِلَةً ، وَلاَ يَظْلِمُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ مِثْقَالَ (أَيْ ثِقْلَ) حَبَّةِ خَرْدَلٍ ، وَلاَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنَّمَا يُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ ، وَيُضَاعِفُ الحَسَنَاتِ لِفَاعِلِيهَا ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ الجَنَّةَ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، وَهِيَ الأَجْرُ العَظِيمُ الذي وَعَدَهُمْ بِهِ[١٤]

وقال تعالى في موضع آخر (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)(الزلزلة ٧-٨).

فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ ثَوَابَهُ مَهْمَا كَانَ حَقِيراً ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي وَزْنِ الذَّرَّةِ . فعَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِىَ النَّبِىُّ - ﷺ - « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ »[١٥].

وعَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا

---

[١٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٣٣)

[١٥] - صحيح مسلم(٦٨٥٧)

فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[16].

وَمَنْ عَمِلَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ سُوءٍ فَإِنَّهُ وَاجِدٌ جَزَاءَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فِي ذَلِكَ اليَوم.

---

[16] - صحيح مسلم- المكتر - (٦٧٣٧)

ثم يكون الجزاء الحق من الحق تبارك وتعالى: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} (١٢٤) سورة النساء

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى عَمَلاً صَالِحاً ، وَهُوَ مُطْمَئِنُ القَلْبِ بالإِيمَان بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُكَافِئُهُ عَلَى أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةَ بِإِدْخَالِهِ الجَنَّةَ ، وَلاَ يُنْقِصُهُ شَيْئاً مِنْ عَمَلِهِ وَلَوْ كَانَ شَيْئاً بَسِيطاً جِدّاً (نَقِيراً) .النَّقِيرُ - نُقْطَةٌ دَاخِلَ نَوَاةِ التَّمْرِ لاَ وَزْنَ لَهَا .[17]

وجاءت كلمتا " ذكر " و" أنثى " هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل، وفي ذلك إيحاء بأن امرها مبني على الستر.

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها. { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى }. وجاء سبحانه هنا بلفظة (مِن) التي تدل على التبعيض.. أي على جزءٍ من كلّ فيقول: { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ } و لم يقل: " ومن يعمل الصالحات " لأنه يعلم خلقه. فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات، هناك من يحاول عمل

[17] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٦١٧)

بعضٍ من الصالحات حسب قدرته. والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد، هذه هي أول مرتبة، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح؛ فالذي يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح، ومن يعمل على ألاّ ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح.

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح. وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد. كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التي ينتفع بها الناس، وقاموا بها للطموح الكشفي، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عملوا لها، وليس لهم جزاء عند الله.

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هـو: { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـائِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً }[النساء: ١٢٤]

قد يقول البعض: إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءا ونجد من يقول: من يعمل السوء هو الذي يجب أن يتلقى العقاب، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم،والحق هو القائل: { جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا }[يونس: ٢٧]

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها. وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلا من الله، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود، فكيف يأتي في هذا المقام قوله تعالى: { وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن، ونقول: إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل.

أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف. إنه غير محدود ولا رجوع فيه. وهذا هو معنى { وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } ، فسبحانه لا يكتفي بجزاء صاحب الحسنة بحسنة، بل يعطي جزاء الحسنة عشر أمثالها وإلى

سبعمائة ضعف، ولا يتراجع عن الفضل؛ فـالتراجع في الفضـل – بالنسبة لله – هو ظلم للعبد. ولا يقارن الفضل من الله بالفضل مـن البشر. فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل أما الله فلا رجوع عنـده عن الفضل.

وهو القائل:{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }[يونس: ٥٨]

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصـداقاً لقولـه تعالى: { فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } والنقير هو: النقرة في ظهره النواة، وهي أمر ضئيل للغاية. وهناك شـيء آخـر يسمى " الفتيل " وهو المادة التي تشبه الخيط في بطن نـواة التمـر، وشيء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه " القطمير ".

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سـبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين."[١٨]



[١٨] – تفسير الشعراوي – (/ ٦١١)

القاعدة الثانية

الأصل أن لا يؤخذ أحد بجريرة غيره

قال تعالى : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (١٦٤) سورة الأنعام .

وَاللهُ تَعَالَى يُجَازِي كُلَّ نَفْسٍ يَوْمَ القِيَامَةِ ، عَلَى مَا فَعَلَتْهُ وَكَسَبَتْهُ فِي الدُّنْيا ، إِنْ خَيْراً فَخَيْراً ، وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً ، وَلاَ يَحْمِلُ أَحَدٌ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَد شَيْئاً ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللهِ تَعَالَى . ثُمَّ تَرْجِعُونَ إِلى اللهِ فَيُخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ أَدْيَانِكُمْ المُخْتَلِفَةِ ، وَيَتَوَلَّى جَزَاءَكُم عَلَيهِ وَحْدَهُ .[19]

وقال الطبري : " يَقُولُ : وَلَا تَجْتَرِحُ نَفْسٌ إِثْمًا إِلَّا عَلَيْهَا ، أَيْ لَا يُؤْخَذُ بِمَا أَتَتْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَكِبَتْ مِنَ الْخَطِيئَةِ سِوَاهَا ، بَلْ كُلُّ ذِي إِثْمٍ فَهُوَ الْمُعَاقَبُ بِإِثْمِهِ وَالْمَأْخُوذُ بِذَنْبِهِ . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى يَقُولُ : وَلَا تَأْثَمُ نَفْسٌ آثِمَةٌ بِإِثْمِ نَفْسٍ أُخْرَى غَيْرِهَا ، وَلَكِنَّهَا تَأْثَمُ بِإِثْمِهَا وَعَلَيْهِ تُعَاقَبُ دُونَ إِثْمِ أُخْرَى غَيْرِهَا . وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ هَذَا

[19] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٩٥٤)

الْقَوْلَ لَهُمْ ، يَقُولُ : قُلْ لَهُمْ : إِنَّا لَسْنَا مَأْخُوذِينَ بِآثَامِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ عُقُوبَةُ إِجْرَامِكُمْ ، وَلَنَا جَزَاءُ أَعْمَالِنَا . وَهَذَا كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ "[20]

فهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه ، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته ، والضال ضلاله على نفسه قال تعالى : {إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} (٤١) سورة الزمر

يَأْمُرُ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ جَمِيعاً ، أَنَّ الذي جَاءَهُمْ بِهِ هُوَ الحَقُّ الذي لاَ مِرْيَةَ فِيهِ ، فَمَنْ اهْتَدَى وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ ، فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ . كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً ، وَإِنَّهُ نَذِيرٌ لَهُمْ غَيْرُ مُوَكَّلٍ بِهِدَايَتِهِمْ ، وَلاَ بِمُسَيْطِرٍ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا الهَادِي هُوَ اللهُ "[21]

وقال تعالى :{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) } [الإسراء/١٥]

[20] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (١٢ / ٢٨٦)

[21] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٤٧٣)

مَنِ اسْتَقَامَ عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ وَاتَّبَعَهُ ، وَاتَّبَعَ النُّورَ الذي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدُ ﷺ فإِنَّهُ يَكُونُ قَد اهْتَدَى ، وتَكُونُ عَاقِبَةُ هُدَاهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ عَنِ الحَقِّ ، وَزَاغَ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ ، فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَعُودُ وَبَالُ سَعْيِهِ عَلَيْهِ هُوَ ، وَلاَ يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ ، وَلاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ أَحَداً إِلاَّ بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِ ، يَدْعُونَهُ إِلَى الحَقِّ .[22]

وهذه القاعدة العظيمة التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها ، قال تعالى: أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) [النجم/٣٦-٤١])

{ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ } هذا المدعي { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: { أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا

[22] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٢٠٤٥)

سَعَى } أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنبا
{ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، { ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأوْفَى } أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: { وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى } من يرى أن القرب لا يفيد (٣) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: { وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ مَا سَعَى } فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.[٢٣]

---

[٢٣] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٨٢١)

وقد يعارض البعض هذا القول بقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) [العنكبوت/١٢-١٤])

وَقَالَ كُفَّارُ قَرِيشٍ لِمَنْ آمنَ مِنْهُمْ ، واتَّبَعُوا الرَّسُولَ ﷺ : ارجعُوا إلى دِينِكُمُ الأَوَّلِ ، وَعُودُوا فِيهِ ، وإذا كَانَ هُنَاكَ بَعْثٌ وَحِسَابٌ فَإِنَّهُمْ سَيَحْمِلُونَ عَنْهُمْ تَبِعَةَ آثامِهِمْ ، وهيَ فِي رِقَابِهِمْ ، وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالى عَلَيهِمْ مُكَذِّباً : إِنَّهُ لا يَحْمِلُ أَحَدٌ ، فَكُلُّ امْرِئٍ بِمَا اكْتَسَبَ رَهِينٌ .

وَسَيَحْمِلُ الدُّعاةُ إِلى الكُفْرِ والضَّلاَلَةِ ، يَومَ القِيَامَةِ ، أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ ، وَمِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ أَضَلُّوهُمْ مِنَ النَّاسِ ، وَصَرفُوهُمْ عَنِ الهُدَى مِنْ غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أولئكَ شَيْءٌ ، وَسَيُحَاسَبُ هؤلاءِ المُضِلُّونَ يومَ القِيَامَةِ عَلَى مَا يَخْتَلِقُونَهُ مِنَ البُهْتَانِ ، وَيُعَذَّبُونَ به .

وقوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) [النحل/٢٤، ٢٥])

وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلاَءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ عَلَى مُحَمَّـــدٍ ﷺ ؟ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الجَوَابِ : لَمْ يُنْزِلْ شَيْئاً ، إِنَّمَا هَـــذا الـــذي نَسْمَعُهُ هُوَ مِنْ أَسَاطِيرِ الأَوَّلِينَ ، مَأْخُوذٌ مِنْ كُتُبِهِمْ وَقَصَصِهِمْ .

وَلَقَدْ قَالُوا مَا قَالُوهُ عَنِ الرَّسُولِ وَعَنِ القُرْآنِ ، وَعَـــنْ رِسَـــالَةِ اللهِ ، لِتَكُونَ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ يَتَحَمَّلُوا آثَامَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ ، وَأَوْزَارَ كُفْـــرِهِمْ ، وَلِيَتَحَمَّلُوا مَعَهَا مِنْ خَطَايَا وَأَوْزَارِ الذي يُضِلُّونَهُمْ ، وَيَحْمِلُونَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِمْ ، { وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً } [٢٤] .

وهذا موافق لما تقدم وليس بمعارض ، فالإنســـان يتحمـــل إثم مـــا ارتكب من ذنوب ، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله ،كما أن دعـــاة الهدى ينالون أجر ما عملوه ومثل أجر من اهتدى بهديهم ، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل يعاقبون عليه.

قال القرطبي : " { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ } يعني مـــا يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم . روي معناه عن النبي ﷺ . وقد تقدّم في «آل عمران» [٢٥] .

وعَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّة ؛ فِي قَوْله : {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَـــالَهُمْ وَأَثْقَـــالاً مَـــعَ أَثْقَالَهِمْ} قَالَ : كَانَ أَبُو جَهْلٍ وَصَنَادِيدُ قُرَيْشٍ يَتَلَقَّـــوْنَ النَّـــاسَ إِذَا

---

[٢٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٩٢٧)

[٢٥] - تفسير القرطبي ـــ موافق للمطبوع - (١٣ / ٣٣١)

جَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُسْلِمُونَ ، فَيَقُولُونَ : إِنَّــهُ يُحَــرِّمُ الْخَمْــرَ ، وَيُحَرِّمُ الزِّنَا ، وَيُحَرِّمُ مَا كَانَتْ تَصْنَعُ الْعَرَبُ ، فَــارْجِعُوا ، فَــنَحْنُ نَحْمِلُ أَوْزَارَكُمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ}.[26]

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – : " يَجِيءُ الظَّــالِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ بَيْنَ الظُّلْمَةِ وَالْوُعْرَةِ لَقِيَــهُ الْمَظْلُومُ فَعَرَفَهُ وَعَرَفَ مَا ظَلَمَهُ بِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الَّذِينَ ظُلِمُوا يَقُصُّــونَ مِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا حَتَّى يَنْزِعُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، فَإِنْ لَــمْ تَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ رُدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ حَتَّى يُورَدَ الدَّرْكَ الْأَسْــفَلَ مِنَ النَّارِ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ [27]

وعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَــالَ : " يَجِــيءُ الرَّجُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْحَسَنَاتِ مَا يَظُنُّ أَنْ يَنْجُوَ بِهَا فَلَا يَزَالُ يَقُــومُ رَجُلٌ قَدْ ظَلَمَهُ مَظْلِمَةً فَيُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَيُعْطَى الْمَظْلُومَ حَتَّى لَــا

[26] – مصنف ابن أبي شيبة – (٢٠ / ٢٤٢) (٣٧٧٢٢) حسن مرسل

[27] – المعجم الأوسط للطبراني – (٦١٣٨) حسن

برح : زال – الدَّرَكُ بالتحريك، وقد يُسَكَّن : واحدُ الأدْراك، وهــي مَنــازل في النــار. والدَّرَكُ إلى أسفل

تَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَنْ قَدْ ظَلَمَهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ فَيُؤْخَذُ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ فَتُوضَعُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ " . "[28] .

وعَنْ حُذَيْفَةَ ، قَالَ : " صَاحِبُ الْمَوَازِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : يَا جِبْرِيلُ ، زِنْ بَيْنَهُمْ ، فَرُدَّ عَلَى الْمَظْلُومِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ حُمِّلَ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ ، فَيَرْجِعُ الرَّجُلُ عَلَيْهِ مِثْلُ الْجِبَالِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ "[29]

وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء . ونظيره قوله تعالى : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : ٢٥] .

ونظير هذا ما وري عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِى صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ « (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) إِلَى آخِرِ الآيَةِ

---

[28] – الْبَحْرُ الزَّخَّارُ مُسْنَدُ الْبَزَّارِ(٢٢٠٦) والْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ لِلطَّبَرَانِيِّ (٦٠٣١) صحيح لغيره

[29] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١٣١٠٤) حسن

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) وَالآيَةَ الَّتِى فِى الْحَشْرِ (اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ) تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ ». [٣٠] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ سَنَّ سُنَّةَ ضَلَالٍ فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ

[٣٠] - صحيح مسلم(٢٣٩٨) وصحيح ابن حبان - (ج ٨ / ص ١٠١)(٣٣٠٨)
المجتاب : اللابس - المذهبة : الشيء المموه بالذهب -النمار : جمع نمرة وهى كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : هَذَا الْخَبَرُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ قَوْلَ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ {لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام] أَرَادَ بِهِ بَعْضَ الأَوْزَارِ لاَ الْكَلَّ ،

شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ هُدًى فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ "[31]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : " مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا "[32]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ فَاتُّبِعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتُّبِعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ». " خرجه ابن ماجة في السنن .[33]

وعَنِ الرَّبِيعِ : لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتُّبِعَ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ ، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتُّبِعَ ، فَلَهُ مِثْلَ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ"[34]

---

[31] - مُسْنَدُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ (١٠٣٨١) صحيح لغيره

[32] - صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ (١١٢) صحيح

[33] - سنن ابن ماجه- المكتر - (٢١٠) حسن

[34] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١٩٦٥٧) صحيح مقطوع

وقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : هَذَا الْخَبَرُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ قَوْلَ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ {لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام] أَرَادَ بِهِ بَعْضَ الأَوْزَارِ لاَ الْكَلَّ ، إِذْ أَخْبَرَ الْمُبَيِّنُ عَنْ مُرَادِ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، فَعَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، فَكَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلاَ قَالَ : لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى إِلاَّ مَا أَخْبَرَكُمْ رَسُولِي ﷺ أَنَّهَا تَزِرُ ، وَالْمُصْطَفَى ﷺ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ ، وَلاَ خَصَّ عُمُومَ الْخِطَابِ بِهَذَا الْقَوْلِ إِلاَّ مِنَ اللهِ ، شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بِذَلِكَ حَيْثُ قَالَ : {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم] ﷺ ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلاَ : {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال] فَهَذَا خِطَابٌ عَلَى الْعُمُومِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى {لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام] ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ ، فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ السَّلَبَ لاَ يُخَمَّسُ وَأَنَّ الْقَلِيلَ يَكُونُ مُنْفَرِدًا بِهِ ، فَهَذَا تَخْصِيصُ بَيَانٍ لِذَلِكَ الْعُمُومِ الْمُطْلَقِ.[٣٥]

وقال الكلاباذي : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : " لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا " فَإِذَا جَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ سِنِينَ إِثْمُ مَنْ عَمِلَ بَعْدَهُ ، كَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يُطْرَحَ سَيِّئَاتُ مَنْ عَمِلَهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَعْمَلْهَا ، فَابْنُ آدَمَ إِنَّمَا قَتَلَ

[٣٥] - صحيح ابن حبان - (ج ٨ / ص ١٠١)(٣٣٠٨)

نَفْسًا وَاحِدَةً وَيُطْرَحُ عَلَيْهِ آثَامُ كُلِّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَذَلِكَ جَزَاءُ فِعْلِهِ ، كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ عُقُوبَةَ ابْنِ آدَمَ فِي النَّارِ إِثْمَهَ وَآثَامَ الْقَاتِلِينَ ، لَا أَنْ يَكُونَ يُؤَاخَذُ بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، وَيُعَاقَبُ عَلَى مَعْصِيَةٍ لَمْ يَعْمَلْهَا ، كَذَلِكَ الظَّالِمُ جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ أَنْ يُعَاقَبَ بِآثَامِ مَنْ ظَلَمَهُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ ، وَعَلَى مَا اكْتَسَبَهُ ، لَا أَنْ يَكُونَ مُؤَاخَذًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، أَوْ مُعَاقَبًا بِمَا لَمْ يَجْنِهِ ، فَحَصَلَ آخِرُ الْأَمْرِ أَنْ يُجَازَى الْمَظْلُومُ عَلَى ظُلْمِهِ ثَوَابَ حَسَنَاتِ ظَالِمِهِ ، وَذَلِكَ جَزَاؤُهُ الَّذِي جَازَاهُ اللَّهُ بِهِ ، وَعِوَضُ مَا أُخِذَ مِنْهُ أَوْ جُنِيَ عَلَيْهِ ، وَثَوَابُ صَبْرِهِ عَلَى مَا أَصَابَهُ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَيُعَاقَبُ الظَّالِمُ بِذَهَابِ حَسَنَاتِهِ ، وَعُقُوبَةِ مَا جَنَى الْمَظْلُومُ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ ظُلْمِهِ ، وَعُقُوبَةُ مَا جَنَتْهُ يَدُهُ وَلِسَانُهُ ، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ ظُلْمٌ وَلَا جَوْرٌ ، وَلَا الْقَوْلُ بِالْإِحْبَاطِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ مَنْ أَتَى كَبِيرَةً وَمَاتَ عَلَيْهَا حَبِطَتْ حَسَنَاتُهُ الَّتِي اكْتَسَبَهَا مُدَّةَ عُمْرِهِ ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ بِاللَّهِ فِي مُدَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، وَلَا طَاعَتُهُ الَّتِي اكْتَسَبَهَا ، بَلْ هُوَ فِي النَّارِ خَالِدًا مُخَلَّدًا مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ . وَأَمَّا الَّذِي قُلْنَاهُ فَإِنَّ هَذَا الظَّالِمَ لَمْ تَحْبَطْ أَعْمَالُهُ ، بَلْ أُسْقِطَتْ حَسَنَاتُهُ عِنْدَ عُقُوبَاتٍ كَثِيرَةٍ ، أَلَا يَرَى أَنَّهُ اقْتَصَّ مِنْهُ فَوَفَّتْ حَسَنَاتُهُ بِجِنَايَاتِهِ ، أَوْ نَقَصَتْ

جنَايَاتُهُ وَزَادَتْ حَسَنَاتُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَإِنَّ زَادَتْ جنَايَاتُهُ فَإِنَّمَا يُعَاقَبُ فِي النَّارِ بقَدْرِ مَا زَادَ منْ جنَايَته فَيَكُونُ عُقُوبَتُهُ أَخَفَّ ، وَمُدَّةُ لَبْثه فِي النَّارِ أَقَلَّ ، وَلَوْلَا حَسَنَاتُهُ لَطَالَ لَبْثُهُ فِي النَّارِ ، وَاشْتَدَّتْ عُقُوبَتُهُ فيهَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلمُ مثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعفْهَا وَيُؤْت منْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظيمًا "[36]

وعَنْ عَقيلِ بن شهَاب، حَدَّثَني عَوْفُ بن مَالك، عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ ، قَالَ:"أُمَّتي ثَلاثُ أَثْلاث: فَثُلُثٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بغَيْرِ حسَاب وَلا عَذَاب، وَثُلُثٌ يُحَاسَبُونَ حسَابًا يَسيرًا، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَثُلُثٌ يُمَحَّصُونَ وَيُكْشَفُونَ، ثُمَّ يَأْتي الْمَلائكَةُ، فَيَقُولُونَ: وَجَدْنَاهُمْ يَقُولُونَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَيَقُولُ اللَّهُ: صَدَقُوا لا إِلَهَ إِلا أَنَا، أَدْخلُوهُمُ الْجَنَّةَ بقَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَاحْملُوا خَطَايَاهُمْ عَلَى أَهْلِ التَّكْذيب، فَهيَ الَّتي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَلَيَحْملُنَّ أَثْقَالَهَمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالهمْ"[العنكبوت آية ١٣] وَتَصْديقُهَا في الَّتي ذَكَرَ فيهَا الْمَلائكَةَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكتَابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا منْ عبَادنَا"[فاطر آية ٣٢] فَجَعَلَهُمْ ثَلاثَةَ أَفْوَاجٍ، وَهُمْ أَصْنَافٌ كُلُّهُمْ "فَمنْهُمْ ظَالمٌ لنَفْسه"[فاطر آية ٣٢] فَهَذَا الَّذي يُكْشَفُ وَيُمَحَّصُ وَمنْهُمْ مُقْتَصدٌ وَهُوَ الَّذي يُحَاسَبُ حسَابًا يَسيرًا، "وَمنْهُمْ سَابقٌ

[36] – بَحْرُ الْفَوَائد الْمُسَمَّى بمَعَاني الْأَخْيَارِ للْكَلَابَاذيِّ (٣٤٨)

بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّه"[فاطر آية ٣٢] فَهَذَا الَّذِي يَلِـــجُ الْجَنَّـــةَ بِغَيْـــرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ بِإِذْنِ اللَّه يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا لَـــمْ يُفَـــرَّقْ بَيْـــنَهُمْ "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِه لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُـــوبٌ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّـــفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ"[فاطر آية ٣٣].[٣٧]



[٣٧] - المعجم الكبير للطبراني - (١٢ / ٤٥٤) (١٤٥٧٢) حسن

القاعدة الثالثة

إطلاع العباد على ما قدموه من أعمال

من إعذار الله لخلقه ، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها ، حتى يحكموا على أنفسهم ، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر ، قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} (٣٠) سورة آل عمران .

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ مِنْ هَوْلِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَهُوَ يَوْمٌ تَجِدُ فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا حَاضِراً أَمَامَهَا ، فَمَا رَأَتْهُ مِنْ أَعْمَالِهَا حَسَناً سُرَّتْ بِهِ وَفَرِحَتْ ، وَمَا رَأَتْهُ قَبِيحاً تَودُّ لَوْ أنّها تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ، وَأنْ يَكُون بَيْنَها وَبَيْنَهُ أمَدٌ بَعِيدٌ ، وَيُحَذِّرُ اللهُ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ عِقَابِهِ ، لأَنَّهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ يُحِبُّ أنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى صِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ ، وَدِينِهِ القَوِيمِ .[٣٨]

وقال تعالى (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) [الانفطار/٤، ٥])

[٣٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٣٢٤)

وَإِذَا تَحَرَّكَتِ الأَرْضُ بِالقُبُورِ فَتَبَعْثَرتْ ، وَقُلِبَ تُرَابُهَــا ، وَخَــرَجَ الأَمْوَاتُ مِنْهَا .إِذَا حَصَلَ كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ مَوْعِدُ قِيَامِ السَّاعَةِ قَدْ حَانَ ، وَحَانَ البَعْثُ وَالحِسَابُ . وَحِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَــدَّمَتْ مِــنْ عَمَلٍ وَلَمْ تُقَصِّرْ فِيهِ ، وَمَا أَخَّرَتْ مِنْ عَمَلٍ وَتَكَاسَلَتْ عَنْ أَدَائِهِ .[39]

وقال تعالى : {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّــا فِيــهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَــبِيرَةً إِلَّــا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّــكَ أَحَــدًا} (٤٩) سورة الكهف.

وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ فَرْدٍ كِتَابُ أَعْمَالِهِ ، وَفِيهِ جَمِيعُ مَا عَمِلَهُ فِــي حَيَاتِهِ ، مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ ، وَمِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ . وَيَــرَى الُمجْرِمُــونَ أَعْمَالَهُمُ القَبِيحَةُ مُحْصَاةً بِتَمَامِهَا ، لَمْ يَنْقُصْ مِنْهَا شَيءٌ ، وَيَعْلَمُــونَ أَنَّ العَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، فَيُشْفِقُونَ مِمَّا سَيَحُلُّ بِهِمْ ، وَيَقُولُــونَ فِــي أَنْفُسِهِمْ : يَا وَيْلَتَنَا ، وَيَا حَسْرَتَنَا ، عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي حَيَاتِنَا الــدُّنْيا ، مَا لِهَذا الكِتَابِ لاَ يَتْرُكُ صَغِيراً مِنْ أَعْمَالِنَا وَذُنُوبِنَا ، وَلاَ كَــبِيراً إِلاَّ أَحْصَاهُ وَوَعَاهُ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ حَاضِراً لِيُحَاسَــبُوا

[39] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٧١٠)

عَلَيْهِ ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ .وَإِنَّمَا يُحَاسِبُ العِبَــادَ عَلَــى أَعْمَالِهِمْ بِالعَدْلِ التَّامِّ .[40]

واطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صــحائف أعمــالهم. وقراءهم لها كما قال تعالى: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِــهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَــى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) [الإسراء/١٣، ١٤])

وَالإِنْسَانُ مُلْتَزِمٌا بِعَمَلِهِ ، وَمَسْؤُولٌ عَنْهُ . وَهَــذا العَمَــلُ مُلْتَصِــقٌ بِالإِنْسَانِ ، وَمُلاَزِمٌ لَهُ مُلاَزَمَةَ القِلاَدَةِ لِلعُنُقِ ، لاَ يَنْفَكُ عَنْهُ بِحَــالٍ ، وَسَيُؤَاخِذُهُ اللهُ عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُخْرِجُ لَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ صَــحِيفَةَ أَعْمَالِهِ كُلِّهَا ، لاَ يَغِيبُ عَنْهَا عَمَلٌ صَغِيرٌ وَلاَ كَبِيرٌ ، لِيُحَاسَبَ عَلَــى هذهِ الأَعْمَالِ جَمِيعِهَا .

وَطَائِرُ الإِنْسَانِ هُنَا عَمَلُهُ الذِي سَبَّبَ الخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَكَانَتِ العَــرَبُ تَزْجُرُ الطَّيْرَ ، فَإِذَا طَارَ الطَّائِرُ يَميناً تَيَمَّنُوا وَتَفَاءَلُوا بِالخَيْرِ ، وَإِنْ طَارَ شِمالاً تَشَاءَمُوا وَتَوَجَّسُوا خِيفَةً مِنَ الشَّرِّ . وَالعَرَب تَضْــرِبُ مَــثَلاً لِلشَّيءِ الذِي يُلاَزِمُ الإِنْسَانَ وَلاَ يُفَارِقُهُ أَبَداً ، فَتَقُولُ : أَلْزَمْتُهُ إِيَّاهُ فِي عُنُقِهِ .

---

[40] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٢١٨٩)

وَيُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ : اقْرَأْ كِتَابَكَ الذي يَحْـــوِي أَعْمَالَـــكَ كُلَّهَا ، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُحَاسِـــبَ عَلَـــى نَفْسِكَ ، وَقَدْ عَدَلَ مَعَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيباً عَلَى نَفْسِكَ .[41]

وفي التفسير الميسر :

" وكل إنسان يجعل الله ما عمله من خير أو شر ملازمًـــا لـــه، فـــلا يحاسَب بعمل غيره، ولا يحاسَب غيره بعمله، ويخرج الله لـــه يـــوم القيامة كتابًا قد سُجِّلت فيه أعماله يراه مفتوحًا.

يقال له: اقرأ كتاب أعمالك، فيقرأ، وإن لم يكن يعرف القـــراءة في الدنيا، تكفيك نفسك اليوم محصية عليك عملك، فتعرف ما عليهـــا من جزاء. وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسِبْ نفسك، كفى بها حسيبًا عليك. "[42]



[41] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٢٠٤٣)

[42] - التفسير الميسر - (٥ / ٧)

القاعدة الرابعة

مضاعفة الحسنات دون السيئات

ومن رحمته تعالى أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة {إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} (١٧) سورة التغابن.

مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ مَال فِي طَاعَة الله ، وَتَقَرُّباً إليه ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعُدُّ ذَلكَ الإِنْفَاقَ مُقَدَّماً إِلَيه تَعَالَى ، وَهُوَ يُخْلفُهُ وَيَرُدُّهُ إِلَى الْمُنْفقينَ - أَضْعَافاً كَثيرَةً - الحَسَنَةُ بعَشْرَة أَمْثَالها إِلَى سَبْعمئة ضعْف - وَيَمْحُو عَنْكُمْ بها سَيِّئَاتكُمْ ، وَيَسْتُرُهَا عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ شَكُورٌ يَجْزِي عَلَى القَليل بالكَثير ، وَهُوَ كَثيرُ الحلْم وَالمَغْفرَة ، يَغْفرُ وَيَسْتُرُ ، وَلاَ يُعَاجلُ بالعُقُوبَة عبَادَهُ عَلَى الذُّنُوب وَالأَخْطَاء لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَرْجعُونَ مُسْتَغْفرينَ .[٤٣]

وتبارك اللّه. ما أكرمه! وما أعظمه! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه. ثم يسأله فضل ما أعطاه. قرضا. يضاعفه ..

ثم .. يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه ..! يا للّه!!!

---

[٤٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٠٩٤)

إن اللّه يعلمنا – بصفاته – كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه – سبحانه – ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة. وقد نفخ اللّه في الإنسان من روحه. فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته ، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع ، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة ، حتى يلقى اللّه بما يحبه له ويرضاه.[٤٤]

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف قال تعالى : {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (١٦٠) سورة الأنعام

مَنْ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ حَسَنَةٍ ، مِنْ خِصَالِ الطَّاعَاتِ ، جَزَاهُ اللهُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا ، مِنْ عَطَاءِ اللهِ غَيْرِ المَحْدُودِ . وَمَنْ جَاءَ بِسَيِّئَةٍ ، فَلا يُجَازَى إلاَّ بِعُقُوبَةِ سَيِّئَةٍ ، مِثْلِهَا ، وَاللهُ لاَ يَظْلِمُ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ عَمَلاً عَمِلَهُ ، فَلاَ يَزِيدُ فِي ذَنْبِ المُسِيءِ ، وَلاَ يَبْخَسُهُ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ الحَسَنَةِ .وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى

وقد تصل مضاعفة الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وأكثر من ذلك كما قال تعالى: { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

---

[٤٤] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٥٩١)

أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (٢٦١) سورة البقرة

يَحُثُّ اللهُ المُؤْمِنِينَ عَلَى إِنْفَاقِ أمْوالِهِمْ فِي سَبيلِ اللهِ ، وَابْتغاءِ مَرْضَاتِه (فِي الحَجِّ وفِي الجِهَادِ وَفِي الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ) وَيَضْرِبُ لَهُمُ الزَّرْعَ مَثَلاً عَلَى تَنْمِيَتِه ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، الأعْمَالَ الصَّالِحَةَ لأصْحَابها ، فَكَمَا يَنْمُو الزَّرْعُ لِمَنْ بَذَرَهُ ، كَذَلِكَ يَتَضَاعَفُ العَمَلُ الصَّالِحُ عَنْدَ اللهِ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ الأجْرَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَيَزِيدُهُ زِيَادَةً لا حَصْرَ لَهَا بِحَسَبِ إخْلاصِ العَبْدِ فِي عَمَلِه ، وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ لاَ يَنْحَصِرُ فَضْلُهُ ، وَلا يُحَدُّ عَطَاؤُهُ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ هَذِهِ المُضَاعَفَةَ وَبِمَنْ لاَ يَسْتَحِقُّهَا . [٤٥]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ »[٤٦].

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

[٤٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٢٦٨)

[٤٦] – صحيح مسلم (٣٥٤)

إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ فَقَالَ ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ"[٤٧]

وعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ ، أَنَّ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ،أَنَّهُ قَالَ : الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،أَوْ أَزِيدُ ، وَالسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ ،أَوْ أَغْفِرُهَا،وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي ، لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً" [٤٨]

ومن الأعمال التي أخبر عنه ﷺ أنها تضاعف قراءة القرآن والذكر والإنفاق والجهاد والحج والصوم والصبر وغيرها كثير مما لم نحصره هنا ، وتتجلى رحمة الله وفضله على عباده أن المؤمن الذي يهمُّ بفعل الحسنة ثم لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة ثم

---

[٤٧] - صحيح مسلم (١٨٥)

[٤٨] - المستدرك للحاكم (٧٦٠٥) صحيح

لا يفعلها مخافة لله تكتب له حسنة تامة . ومن واسع رحمته وفضـــله تبارك وتعالى أن يبدل السيئات حسنات كما قال تعالى { إِلَّـــا مَـــن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَـــنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (٧٠) سورة الفرقان ،

إلا مَنْ تَابَ في الدُّنْيا ، وأخْلَصَ التوبةَ وهو مُـــؤْمنٌ ، وقـــدْ عَمـــلَ الصالحات ، ورجَعَ إلى رَبِّه مُسْتَغْفِراً مُنيباً ، فإنَّ اللهَ تَعالى يتوبُ عليه ، ويُحْسِنُ عاقِبَتَهُ ، (وفي ذلك دَلالةٌ على صحَّة توبـــة القَاتـــل) ، وهؤلاءِ هُمُ المُؤمنون ، كانُوا قبلَ إيْمَانِهِمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئات ، فَحَوَّلَهُمُ اللهُ تَعالى إلى الحَسَنات ، وأبْدَلَهُمْ مَكَانَ السَّيئات الحَسَـــنَات ، واللهُ غفورٌ لذُنُوبِ عبادِه ، رَحيمٌ بِهِمْ . فأي فضل بعد هذا الفضل؟

وعَنْ طَوِيلٍ شَطَبِ الْمَمْدُودِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتَ رَجُلا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا فَلَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لا يَتْرُكُ حَاجَةً أَوْ دَاجَةً إلا اقْتَطَعَهَا بِيَمِينِـــه ، فَهَـــلْ لِذَلِكَ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : هَلْ أَسْلَمْتَ ؟ قَالَ : أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَـــالَ : نَعَـــمْ ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ وَتَتْرُكُ الشَّرَّاتِ فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَـــلَّ لِلْخَيْـــرَاتِ

كُلِّهِنَّ قَالَ وَغَدَرَاتي وَفَجَرَاتي ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى"[٤٩]



---

[٤٩] - الآحاد والمثاني - (٤ / ٥٦٠) (٢٧١٨) والمعجم الكبير للطبراني - (٦ / ٤٧٥) (٧٠٨٥) حسن

قَالَ أَبُو الْمُغِيرَة : سَمِعْتُ الْمَيْسرَ بْنَ عُبَيْد وَكَانَ عَارِفًا بِالنَّحْوِ وَالْعَرَبِيَّة قَالَ : الْحَاجَةُ : الَّذي يَقْطَعُ عَلَى الْحَاجِّ إِذَا تَوَجَّهُوا وَالدَّاجَةُ : الَّذي يَقْطَعُ عَلَيْهِمْ إِذَا رَجَعُوا " الهرم : كبر السّن وضعفه - فجر : مال عن الحق إلى الباطل والكذب -الفجرات : جمع فجرة وهي المرة من الفجور وهو اسم جامع لكل شر

القاعدة الخامسة

إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين

قال تعالى : {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (٦١) سورة يونس

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بَجمِيعِ أَحْوَالِ رَسُولِهِ وَأُمُورِهِ ، سَوَاءٌ مِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌ بِهِ ، أَوْ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِشُؤُونِ الدَّعْوَةِ ، وَأَنَّهُ لاَ يَتْلُو مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مِنْ قُرْآنٍ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللهُ تَعَبُّداً وَتَهَجُّداً بِهِ ، أَوْ تَبْلِيغاً لَهُ لِلنَّاسِ ، وَلاَ يَقُومُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ ، بِعَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ غَيْرِ صَالِحٍ ، كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ ، إِلاَّ كَانَ اللهُ تَعَالَى رَقِيباً عَلَيْهِمْ فَيَحْفَظُهُ لَهُمْ ، وَيَجْزِيهِمْ بِهِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَىلاَ يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيءٌ صَغُرَ أَوْ كَبُرَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، أَوْ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ ، فَكُلُّ شَيءٍ مُحْصًى عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .[٥٠]

ولكن الله يحبُّ الأعذار إلى خلقه فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر كما قال تعالى: { فَكَيْفَ

---

[٥٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٤٢٦)

إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) [النساء/٤١، ٤٢] }

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنْ هَوْلِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ ، فَإِذَا كَانَ لاَ يَضِيعُ مِنْ عَمَلِ العَامِلِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فَكَيفُ يَكُونُ الأَمْرُ وَالحَالُ ، يَوْمَ القِيَامَةِ ، حِينَ يَجْمَعُ اللهُ الخَلاَئِقَ ، وَيَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَاهِدٍ عَلَيهَا (هُوَ نَبِيُّها) ، وَيَأتِي بِمُحَمَّدٍ شَاهِداً عَلَى قَوْمِهِ (هَؤُلاَءِ) ؟ وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ هِيَ عَرْضُ أَعْمَالِ الأُمَمِ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَمُقَابَلَةُ عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ بِعَقَائِدِ الأَنْبِيَاءِ ، وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ ، فَمَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ أَنَّهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، وَمَا أَمَرَ النَّاسُ بِالعَمَلِ بِهِ فَهُوَ نَاجٍ ، وَمَنَ تَبَرَّأَ مِنْهُ الأَنْبِيَاءُ فَهُوَ مِنَ الأَخْسَرِينَ .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَتَمَنَّى الذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ ، وَعَصَوْا رَسُولَهُ ، لَوْ أنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ وَابْتَلَعَتْهُمْ مِمَّا يَرَونَ مِنْ هَوْلِ المَوْقِفِ ، وَمِمَّا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الخِزيِ وَالفَضِيحَةِ وَالتَّوبِيخِ . فَفِي يَوْمِ القِيَامَةِ يَجْمَعُ اللهُ الخَلاَئِقَ فِي بَقِيعٍ وَاحِدٍ ، فَيَقُولُ المُشْرِكُونَ : إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً إِلاَّ مِمَّنْ وَحَدَّهُ ، فَتَعَالُوا نَجْحَدْ . فَيَسأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ، فَيَقُولُونَ : وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَيَسْتَنْطِقُ

جَوَارِحَهُمْ ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ ، فَعِنْدَئِذٍ يَتَمَنَّوْنَ لَوْ أنَّ الأَرْضَ سُوِّيَتْ بِهِمْ ، وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً .[51]

وقوله تعالى : { وَنَزَعْنَا من كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (٧٥) سورة القصص .

وَيومَ القِيامَةِ يَنْزِعُ اللهُ تَعَالى مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَاهِداً عَلَيها ، هُوَ نَبِيُّهَا ، فَيشْهَدُ عَلَيها بما أَجَابَتهُ به أُمَّتُهُ حينَ دَعَاها إِلى اللهِ ، وأَبلَغَها رَسَالاَتِ رَبِّه ، ويَقُولُ اللهُ تَعَالى للمُخَالفِينَ مِنْهُم : هَاتُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حُجَّةٍ وَبُرهَانٍ على صحَّة ما ادَّعيتُمُوهُ مِنْ أَنَّ للهِ شُرَكَاءَ . وَحينئذٍ يَعلَمُونَ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ المَلكُ الحَقُّ ، وَلا حَقَّ غَيرُهُ ، فَلا يَنطِقُونَ ، ولا يُجيبُونَ بِشَيءٍ عَنْ سُؤالِ الرَّبِّ العَظيمِ ، وَيَتَلاشَى بَاطِلُهُمْ ، وَمَا كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ دُون اللهِ .[52]

وقال تعالى: {وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} (٢١) سورة ق.

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ في ذَلِكَ اليَوْمِ رَبَّها وَمَعَهَا سَائِقٌ يَسُوقُها إليهِ ، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيها بِمَا عَمِلَتْ في الدُّنيا مِنْ خَيرٍ وَشَرٍّ .[53]

---

[51] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٥٣٤)

[52] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٣٢٠٩)

[53] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٤٥٣٠)

وقال السعدي : " { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ } يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه، { وَشَهِيدٌ } يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام، توبيخًا، ولومًا وتعنيفًا أي: لقد كنت مكذبًا بهذا، تاركًا للعمل له فالآن { كشفنا عَنْكَ غِطَاءَكَ } الذي غطى قلبك، فكثر نومك، واستمر إعراضك، { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } ينظر ما يزعجه ويروعه، من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد، فإنه في الدنيا، في غفلة عما خلق له، ولكنه يوم القيامة، ينتبه ويزول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب، بذكر ما يكون على المكذبين، في ذلك اليوم العظيم."[٥٤]

ومن الأشهاد الأرض والليالي تشهد بما عمل فيها وعليها ، ويشهد المال على صاحبه، وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون. فإذا

---

[٥٤] - تفسير السعدي - (١ / ٨٠٥)

لجَّ العبد في الخصومة وكذب ربه وكذب الشهود الذين شهدوا عليه ، أقام الله عليه شاهدا منه ، فتشهد على المرء أعضاؤه ، كما قال تعالى: { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) [فصلت : ١٩ -٢١] }

وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلاَءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ حَالَ الكُفَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ وَيَرْتَدِعُونَ عَنْ غِوَايَاتِهِمْ ، فَفِي ذَلِكَ اليَومِ يُسَاقُ الكَفَرَةُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ ، فَتَحْبِسُ الزَّبَانِيَةُ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ (أَيْ تَقِفُهُمُ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يَتَلاَحَقُوا ، وَيَتَكَامَلَ جَمْعُهُمْ)

حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى النَّارِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا ، شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ (سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) بِمَا كَانُوا يَجْتَرِحُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ المَعَاصِي ، وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ ، لاَ يَكْتُمُونَ مِنْهَا شَيْئاً .

فَيَقُولُ المُجْرِمُونَ لِجُلُودِهِمْ ، وَهُمْ يَلُومُونَها عَلَى شَهَادَتِهَا عَلَيْهِمْ : لِمَاذَا شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ فَتَرُدُّ الجُلُودُ قَائِلَةً : إِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الذي أَنْطَقَهَا

، وَهُوَ تَعَالَى الذي خَلَقَهَا وَخَلَقَهُمْ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، فَهُوَ تَعَـالَى لاَ يُخَالَفُ وَلاَ يُمَانَعُ .[٥٥]

وقال تعالى :{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) [فصلت/١٩، ٢٣]

وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ حَالَ الكُفَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ وَيَرْتَدِعُونَ عَنْ غِوَايَاتِهِمْ ، فَفِي ذَلِكَ اليَومِ يُسَاقُ الكَفَرَةُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ ، فَتَحْبِسُ الزَّبَانِيَةُ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ (أَيْ تَقِفُهُمُ المَلاَئِكَةُ حَتَّى يَتَلاَحَقُوا ، وَيَتَكَامَلَ جَمْعُهُمْ)

حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى النَّارِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا ، شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ (سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) بِمَا كَانُوا يَجْتَرِحُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ المَعَاصِي ، وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ ، لاَ يَكْتُمُونَ مِنْهَا شَيْئاً .

---

[٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٤١١٦)

فَيَقُولُ الْمُجْرِمُونَ لِجُلُودِهِمْ ، وَهُمْ يَلُومُوَنَها عَلَى شَهَادَتِها عَلَيْهِمْ : لِمَاذَا شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ فَتَرُدُّ الجُلُودُ قَائِلَةً : إنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الذي أَنْطَقَهَا ، وَهُوَ تَعَالَى الذي خَلَقَهَا وَخَلَقَهُمْ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، فَهُوَ تَعَالَى لاَ يُخَالَفُ وَلاَ يُمَانَعُ .[٥٦]

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب. وسلطان اللّه الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب. وهم يوصمون بأنهم أعداء اللّه. فما مصير أعداء اللّه؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع! إلى أين؟ إلى النار! حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب. إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ. وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروي عنهم ما حسبوه سرا. فقد يستترون من اللّه. ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم. و لم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم. وكيف وهي معهم؟ بل كيف وهي أبعاضهم؟! وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستورا عن الخلق أجمعين. وعن اللّه رب العالمين! يا للمفاجأة بسلطان اللّه الخفي ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبي وتستجيب!

[٥٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٤١١٦)

«وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا؟» ..فإذا هي تجبههم بالحقيقة التي خفيت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة : «قالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ»؟ أليس هو الذي جعل الألسنة هي الناطقة؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها. وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين.

«وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ..فإليه المنشأ وإليه المصير ، ولا مفر من قبضته في الأول وفي الأخير.

وهذا ما أنكروه بالعقول. وهذا ما تقرره لهم الجلود! وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم. وقد تكون تعقيبا على الموقف العجيب : «وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ» ..فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم! «وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ» ..وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم : «وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ» ..ثم يجيء التعقيب الأخير : «فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» ..يا للسخرية! فالصبر الآن صبر على النار وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء. إنه الصبر الذي جزاؤه النار قرارا ومثوى يسوء فيه الثواء!

«وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ» ..فما عاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب. وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلب من ورائه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء. فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب. لا الصفح والرضى الذي يعقب العتاب![٥٧]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ تَبَسَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلا تَسْأَلُونِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتُ ؟ فَقَالَ : عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تَظْلِمَنِي ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي لاَ أَقْبَلُ عَلَيَّ شَهَادَةَ شَاهِدٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي ، فَيَقُولُ : أَوْ لَيْسَ كَفَى بِي شَهِيدًا ، وَبِالْمَلائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ ؟ قَالَ : فَيُرَدِّدُ هَذَا الْكَلامَ مَرَّاتٍ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُمْ وَسُحْقًا ، عَنْكُمْ كُنْتُ أُجَادِلُ"[٥٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٧] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٣١١٨)

[٥٨] - المستدرك للحاكم (٨٧٧٨) صحيح

ثمرات الإيمان باليوم الآخر

لما كانَ الإيمان باليوم الآخر أحدَ أصولِ الإيمان الستةِ التي لا يصـــحُّ إيمانُ مسلمٍ بدونها.

ولما لذلك الإيمانِ من أثرٍ في حياة المسلمِ وطاعته لأوامر الله (عـــزَّ و جلَّ) واجتنابِ نواهيه، ولما له من أثرٍ في صلاحِ القلـــوبِ وصـــلاحِ الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ولما في نسيانِ ذلك اليوم العظيم والغفلةِ عنه من خطرٍ على حياةِ الناس ومصيرهم.. فلا غرابةَ إذن أن يردَ ذكرُ هذا اليوم كثيراً في القرآن الكريم ، حتى لا تكاد تخلو منـــه صفحةٌ من صفحاته.

وإذا كانَ الكتابُ والسنَّةُ قد اهتما غاية الاهتمامِ بتفاصيل ذلك اليوم المشهودِ، وبأحوال هذا النبأ العظيم؛ فإنه من الحمقِ والجهلِ ألا نهتمَّ بما اهتمَّ به الوحيان.

إنَّ أعظمَ قضيةٍ يجبُ أن ينشغلَ بها كلٌّ واحد منا هي: قضيةُ وجودهِ وحياتهِ والغايةِ منها، وقضيةُ مستقبلهِ ومصيرهِ وشقائهِ وسعادته، فلا يجوزُ أن يتقدمَ ذلك شيءٌ مهما كان، فكلُّ أمر دونه هـــينٌ ،وكـــلُّ خطبٍ سواه حقيرٌ. وهل هناكَ أعظمُ وأفدحُ من أن يخسرَ الإنســـانُ حياتَه وأهلَه، ويخسرَ مع ذلك سعادتَه وسعادتَهم، فماذا يبقى بعـــد

ذلك؟ قال تعالى : {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِه قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (١٥) سورة الزمر . وقال تعالى : {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} (٤٥) سورة الشورى .

وأهميةُ هذا الموضوع تتجلَّى فيما يلي:

١- انفتاح الدنيا الشديد على كثير من الناس في هذا الزمان وما صحب ذلك من مكر الليل والنهار بأساليب جديدة ودعايات خبيثة تزين الدنيا في أعين الناس وتصدهم عن الآخرة، ومع ما كان عليه صحابة رسول الله - ﷺ - من الإيمان والتقوى، فقد كانَ يحذرهم من الاغترار بالدنيا وضرورة الاستعداد للآخرة، مع أنَّ الدنيا لم تنفتحْ عليهم مثل اليوم، فلا شكَّ ولا ريبَ أننا أحوجُ منهم بكثير إلى أن نتذكرَ الآخرة ويذكِّرَّ بعضُنا بعضاً، بعظمةِ شأنها وأهمية الاستعداد لها.

٢- ركونُ كثيرٍ من الناس للدنيا، ولقد ترتبَ على ذلك أن قستِ القلوب، وتحجرتِ الأعينِ، وهُجِرَ كتابُ الله (عز وجل)، وإذا قرأ أحدُنا القرآن قرأهُ بقلب لاهٍ، فأنَّى لمثل ذلك القلب أن يخشعَ لذكر

اللهِ؟ وأنَّى لعينيهِ أن تـــمعَ خوفاً من الله، وقد انعكس ذلـــك علـــى الصلاةِ ، فقلّ الخاشعونَ والمطمئنون فيها.. والله المستعان.

٣- لما في تذكُّرِ ذلك اليومِ ومشاهدهِ العظيمةِ من حثٍّ على العمـــلِ الصالحِ ، والمبادرةِ لفعل الخيراتِ وتركِ المنكراتِ ، بل مـــا تكاســـلَ المتكاسلون في عمل الصالحات سواءٌ الواجب منـــها والمســـنونُ إلا بسببِ الغفلةِ عن الآخرة والانشغالِ عنها، يقول تعالى في وصـــف عباده الصالحين: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُـــوبُ وَالْأَبْصَـــارُ} (٣٧) سورة النـــــور ، وقال تعالى : {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْـــلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَـــابِ} (٩) ســـورة الزمر.

٤- لَمَّـــا ظهرَ في عصرنا اليومَ من المشكلاتِ المعقـــدةِ والأمـــراضِ المزمنةِ، التي نشأتْ عنها الأمراضُ النفســـيةُ المتنوعـــةُ مـــن القلـــقِ والاكتئابِ، اللذين يؤديانِ غالباً إلى حياةٍ يائسةٍ، ومن أسبابِ ذلك: البعدُ عن الله تعالى، وعن تذكُّرِ اليومِ الآخر.

٥- لَمَّا تميزَ به زمانُنا اليومَ من كثرةِ المظالم في بعـــض المجتمعـــاتِ واعتداءِ الناس بعضهم على بعضٍ، من أكلٍ لأموالٍ غيرهِـــم بـــدونِ

وجهِ حقٍّ، وكذلك النيلُ من الأعراضِ، والحسدِ والتباغضِ، والفرقةِ والاختلافِ، وبخاصة بين بعضَ الدعاةِ وطلبةِ العلم، ولا شكَّ أنه لا شيءَ مثلَ تذكرِ اليومِ الآخرِ، وتذكُّرِ الوقوف بين يدي الله (عز وجل) علاجاً لتلك الأمراضِ.

٦- ولما كان الركونُ إلى الدنيا والغفلةُ عن الآخرةِ من أعظمِ الأسبابِ في وهن النفوس وضعفها كان لا بدَّ من التذكيرِ المستمرِّ بذلك اليوم ،وما فيه من نعيمٍ أو جحيمٍ، لأنَّ في هذا التذكير أكبرَ الأثر في نشاط الهممِ وعدم الاستسلامِ للوهنِ واليأسِ رجاءَ ثواب الله (عزَّ وجلَّ) وما أعدَّهُ للمجاهدين في سبيله الداعين إليه.

٧- ولَمَّا قلَّ في برامجِ الدعوةِ والتربيةِ الاعتناءُ بهذه الجانب العظيمِ من التربية مما له الأثرُ الكبيرُ في الاستقامةِ على الجادة ، والدعوةِ إلى الله على بصيرةٍ، ولكنْ نرى من بعضِ المهتمينَ بالدعوة من يستهينُ بهذا الجانبِ العظيمِ حتى صارَ بعضُهم يقللُ من أثرِ التذكرةِ بالآخرة بقوله: إن هذا الأمرَ يغلبُ عليه الوعظُ أو هذا مقالٌ عاطفيٌّ وعظيٌّ... إلخ.. مع أنَّ المتأملَ لكتابِ الله (سبحانه) وسنَّةِ رسوله - ﷺ - يرَى بجلاءٍ جانبَ الوعظِ بارزاً بالربط بين الدنيا والآخرةِ والثوابِ والعقابِ.. نسأل اللهَ أن يهدينا جميعاً ،وأنْ يوفقَنا للاقتداءِ بالسنَّةِ والسيرِ على نهجِها.

الآثارُ المرجوةُ لليقين باليوم الآخر:

إنَّ في اليقين باليوم الآخر وأنبائه العظيمة لآثاراً واضحةً وثماراً طيبةً، لابدَّ أن تظهر في قلب العبد وعلى لسانه وجوارحه، وفي حياته كلِّها، ولكنَّ هذا اليقين وحده لا يكفي حتى ينضمَّ إليه الصبر ومجاهدة الشهوات والعوائقِ، لأن الواحد منا ـــ مع يقينهِ باليوم الآخر وأهواله ـــ يرى في حياته أن ثمراتِ هذا اليقين ضعيفةٌ، فلابد إذن من سببٍ لهذا الأمر.



أهم المصادر

١. أيسر التفاسير لأسعد حومد
٢. صحيح مسلم- المكتر -
٣. تفسير الشعراوي
٤. تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة -
٥. تفسير السعدي
٦. تفسير القرطبي ـــ موافق للمطبوع -
٧. مصنف ابن أبي شيبة
٨. المعجم الأوسط للطبراني
٩. الْبَحْرُ الزَّخَّارُ مُسْنَدُ الْبَزَّارِ
١٠. الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ لِلطَّبَرَانِيِّ
١١. جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ
١٢. صحيح ابن حبان
١٣. مُسْنَدُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ
١٤. سنن ابن ماجه- المكتر -
١٥. بَحْرُ الْفَوَائِدِ الْمُسَمَّى بِمَعَانِي الْأَخْيَارِ لِلْكَلَابَاذِيِّ
١٦. التفسير الميسر
١٧. فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع -
١٨. المستدرك للحاكم
١٩. الآحاد والمثاني

الفهرس العام